وفوطة واحرام وازار ثم خاطوا القميص والرداء والعباءة وكانت من ذلك ملابس اهالي الجنوب والمشرق . اما اهالي الشمال فالتفوا بالجلود والفراء التفافاً وكانت من ذلك الاثواب الضيقة التي يلبسها رجال الاوربيين لهذا العهد ولمّا تغلّب برابرة الشمال على الممالك الرومانية اقتدى بهم رجال الرومانيين وتولّد من ذلك زي الرجال الاوربي المتّبع لهذا العهد اما النساء وخدمة الدين فحافظوا على الاكسية الواسعة التي كانت شائعة في المملكة الرومانية وفي كل البلدان الحارة ولم يزالوا محافظين عليها الى الآن

واذا صحّ ما تقدّم من ان اللباس مشتق من الحلى وان الغرض منه كان اولاً الزينة ثم اريد به الوقاية وستر العورة وجب ان يقلّ الميل الى التحلي والتزيّن وقد كان الامر كذلك ولكنّ النساء لم يجارين الرجال في الاقلال من الحلى وادوات الزينة بل حافظنَ على القديم ولذلك ترى رجال المتمدنين لا يلبسون الاّ ما ندر من الحلى وهم يكتفون بتعليقها على اثوابهم واما النساء فلا يزلنَ يلبسنها على ابدانهنّ فيتقلدنَ القلائد في اعناقهنّ ويعلقنَ الافراط في آذانهنّ ويلبسنَ الاساور والخواتم . وقد كان غرض الانسان من التزيّن الامتياز على غيره وهو من اقوى الاسباب التي دعت الى الحضارة والعمران

تقدّم صناعة الطب

عثرنا على خطبة في هذا الموضوع للدكتور برنتن جمع فيها زبدة تقدّم هذه الصناعة في الخمس والعشرين السنة الاخيرة فلخصنا منها ما يأتي

كان اعتماد الاطباء في تشخيص الامراض على رؤية اللسان وجس النبض وهز البول ورؤية الغائط والنفث اما الآن فيتعلّم تلامذة الطب كيفية استعمال مرآة المحجرة (اللارنغوسكوب) ومرآة العين (افثلمسكوب) ومرآة الاذن (اوتوسكوب) والكهربائية والتحليل الكيماوي واستعمال الميكرسكوب وعليهم ان يمحنوا البول امتحاناً كيماوياً ويفحّصوا اعضاء البدن ومفرزاته بالميكرسكوب ليعلموا ما حلّ فيها من التغير وما اتصل اليها من انواع الميكروبات وجراثيم الامراض

ومنذ خمس وعشرين سنة كنا نعلم ان التيفوس مرض معدٍ وان الحمرة وتسمّم الدم اذا ظهرا في المستشفى فقد يتدّان من مريض الى آخر ولكننا لم نكن نعلم اسباب هذه الامراض

كما نعلم الآن ولم يكن لدينا وسائط لمعالجتها مما لدينا الآن . وكان تقدُّم صناعة الطب على اكثره في الحميات والامراض العصبيَّة . وقد ابتدأ درس الامراض العصبية بتعيين الدكتور فريز للمراكز العصبيَّة اما الحميات فقد استعنا على معرفتها بالثرمومتر وعلمنا ايضًا انواع الميكروبات المولِّدة لها وانواع الادوية التي تميت هذه الميكروبات او تقلل ضررها

والكينا من اشهر الادوية لمعالجة الحمَّى كما لا يخفى وقد اعتاد الاسبانيون ان يقطعوا اشجارها لاستخراج الكينا من قشرها ولا يزرعوا اشجارًا اخرى عوضًا عنها فقلَّت اشجار السنكونا وخيف من انقراضها وغلا ثمن ملح الكينا الى حد فاحش فحاول الكيماويون تركيبهُ كيماويًّا ومن جملة الذين حاولوا ذلك الكيماوي بركس فلم ينجح ولكنهُ اكتشف اصباغ الانيلين وهو يحاول اصطناع ملح الكينا ولهذه الاصباغ فائدة صناعية كبيرة كما لا يخفى ولها ايضًا فائدة طبيَّة عظيمة في تلوين الميكروبات ولولاها ما امكن رؤية بعض الميكروبات المرضيَّة . ونتج ايضًا من محاولة اصطناع الكينا ان دُرِست المركبات العطريَّة واصطنع الحامض السليسيليك والاسبنايليد والانتيبيرين والفناسيتين وكل العقاقير الخافضة للحرارة

وكثيرًا ما تولَّد النفع العظيم في صناعة الطب من امور طفيفة كما في بقيَّة الصنائع فقد عُلم في مشارق الارض ومغاربها ما لمكتشفات الشهير باستور من الفائدة الجزيلة والنفع العميم ولكنهُ اتَّصل الى هذه المكتشفات من البحث عن السبب الذي يغير شكل بلورات الحامض الطرطريك فان البحث في هذا الموضوع قادهُ الى البحث عن الاختمار بنوع عام وعن الخمر والبيرة بنوع خاص وبذلك خلَّص بلادهُ من خسارة ملايين من الجنيهات كانت تخسرها بفساد الخمر وبطء تكوُّن الخل . وقادهُ ايضًا الى البحث عن الاحياء الدنيا التي تجعل البلورات تحرف النور المستقطب فدرس طبائع هذه الاحياء وكيفية نموها واستنباتها . ثم اشكل عليهِ امر الديبتاس الذي يحول النشا الى سكر لانهُ ليس من الميكروبات في شيء الاَّ ان شذوذ هذه المادَّة ادَّى الى اكتشاف حقيقة من اهم الحقائق وهي انهُ يتكوَّن من الميكروبات مواد كيماويَّة تفعل فعل الميكروبات نفسها ولو كانت مجرَّدة عنها

وكان بحث باستور مقتصرًا على ميكروبات الاختمار في اول الامر فاستطردهُ الى البحث عن ميكروبات الامراض وشرع اولاً في البحث عن مرض دود الحرير فافاد بلاد فرنسا وبلدان المشرق فوائد لا تقدر قيمتها وبحث ايضًا عن ميكروب الانثركس فاتصل الى تربيتهِ خارج البدن واضعاف فعلهِ ثم وقاية المواشي بتطعيمها بالميكروب الضعيف الفعل واكتشف ايضًا ان الميكروب الذي أُضعِف فعلهُ يمكن ان يقوِّي فعلهُ ثانيةً بانتقالهِ

من حيوان الى حيوان آخر اقوى منهُ ومن ثم انضحت كيفيَّة اشتداد الامراض الوبائيَّة التي تصيب اولاً ضعاف البنية ثم تزيد قوةً وفتكًا باغتنالها من شخص الى آخر

وطريقة باستور لتربية الميكروب خارج البدن لم تكن كافية لفصل كل ميكروب على حدتهِ وتربيتهِ وحدهُ فقام كوخ واستنبط طريقة ينفصل بها كل ميكروب عن غيرهِ ويربَّى وحدهُ فتُعلَم طباعهُ وتأثير الفواعل الخارجيَّة فيهِ لاضعاف فعلهِ او تقويتهِ

وقد عُلم بالبحث ان الميكروبات المختلفة يقاوم بعضها بعضًا وتتنازع البقاء كبقية طوائف الحيوان والنبات جريًا على الناموس الذي شرحهُ داروين ولا تقتصر في جهادها على مغالبة بعضها بعضًا بل تتنازع البقاء هي وكريات الجسم فتُغلَب منها تارةً وتتغلَّب عليها أُخرى ومن غريب امرها انها قلما تحارب يدًا ليد بل تنشئ سمًّا مميتًا شبيهًا بالالبيومن وبهِ تتغلب على الاعضاء التي تنتشر فيها ويمكن فصل هذا السم عنها بسهولة والبحث فيهِ وحدهُ لانهُ يمكن اماتتها بالحرارة ويبقى تركيب سمها على حالهِ ومن الغريب ان سم هذه الميكروبات شبيه بالمفرزات التي تفرز وقت الهضم العادي فان هذه تسم الدم اذا أُدخلت اليهِ رأسًا مع انها غير سامَّة وهي في المعدة. ومن الغريب ان بعض الشبيهات بالالبيومن المفرزة من بعض اعضاء البدن تكون نافعة في محلها وضارة في محلٍّ آخر كمفرز الغدة الدرقية فانهُ اذا مزج بالماء وحُقن بهِ الدم جمَّدهُ حالاً فمات بهِ الحيوان كأنهُ اصيب بصاعقة بخلاف البيتون فانهُ يسيل الدم ويمنع تجمدهُ ولا يبعد ان يكون لكل سم من السموم التي تفرزها الميكروبات المختلفة ترياقًا يفرزهُ ذلك الميكروب نفسهُ او ميكروب آخر. ويقال ان فائدة التطعيم بالتخاع الشوكي في علاج الذين عقرهم الكلب الكليب مبنية على ذلك

وحتَّى الآن لم يعلم ما هو السبب الحقيقي الذي يفي من فعل الميكروبات السامَّة والارجح ان الوقاية لا تتوقف على سبب واحد بل لها اسباب مختلفة وفي جملتها ان مفرز الميكروب الواحد قد يفي الجسم من مفرز ميكروب آخر فلا يعود قابلاً للتأثر بهِ وعلى هذا النمط استعمل هنكن مصل دم الجرذ لوقاية الفيران من البثرة الخبيثة فوقاها واستعمل برنهيم وليبن مصل دم المعزى والكلاب للوقاية من التدرُّن فنجح بعض النجاح بناء على ان البثرة لا تفعل بالجرذ والتدرُّن لا يصيب المعزى وقلما يصيب الكلاب

وقد ظنَّ البعض ان الفائدة لمصل الدم نفسهِ لا لكونهِ مصل دم هذا الحيوان او ذاك فاشار الدكتور برنتن بوضع الحراريق وتطعيم البدن بالمصل المولَّد منها ولا يمكن اثبات ذلك الاَّ بالامتحان . ويمتاز علم الطب الآن في انهُ لا يقتصر على الاقوال والآراء ولا يجيز

امتحان شيء في الانسان قبل امتحانهِ في الحيوان الاعجم مرارًا عديدة والاستيثاق من نفعهِ وتظهر فائدة الامتحان وعدم الاكتفاء بالاراء والاقوال في اكتشاف مضادات الفساد فان الاقدمين كانوا يواسون الجروح بالزيت والخمر وهما من مضادات الفساد ثم انتقلوا الى عمل البلسم وهو من مضادات الفساد ايضًا ولكنهُ كاوٍ قليلاً فظن الذين كانوا يستعملونهُ ان فائدتهُ تتوقف على هذه الخاصَّة وصاروا يواسون الجروح بالكي و بالمراهم الكاوية واتفق لامبروز باري الجرَّاح الفرنسوي انهُ آسى بعض الجرحى في موقعة من مواقع القتال وترك البعض الآخر بدون مواساة اذ لم يبقَ عندهُ شيء من المرهم فوجد في اليوم التالي ان الذين لم يواسهم احسن حالاً من الذين آساهم فللحال الغى استعمال هذا المرهم وصار يواسي الجرحى بالمسكنات كما هو مشهور فافاد صناعة الجراحة فائدة لا تقدَّر. ثم علم لستر ان فساد الجروح حادث من دخول الجراثيم الحيَّة اليها فاشار بالطرق الواقية لها من هذه الجراثيم ومن ثمَّ اتَّسع نطاق الجراحة وصارت تتناول كثيرًا من الآفات الداخلية التي يعجز الطب عن معالجتها

وهذه الحقيقة التي اكتشفها الشهير لستر لم تقتصر فائدتها على مضادَّة فساد الجروح بل عُلِم بها انهُ يمكن معالجة جراثيم كثير من الامراض المعدية بما يميتها قبل ان تدخل بدن الانسان والآن تطهَّر الغرف التي يقيم فيها المسلولون والمصابون بذات الرئة ونحوها من الامراض المعديَّة كما تطهَّر الارض من المفسدين وزارعي بذار الشقاق

وقد ترتَّب على ذلك ايضًا ان عُرِفت اسباب الامراض الوبائية وعُلِمت طرُق التوقي منها إما بامانتها خارج البدن قبل ان تدخله او بتقليل استعداد البدن للتأثر بها وذلك بتطعيمهِ كما في الجدري او بمقاومتها وهي فيهِ بمضادات الحرارة. وقد درست طباع الميكروبات التي تسبب كثيرًا من الامراض فعلمت الطرق التي تميتها او تضعف فعلها

وحاول البعض منع الامتحان في الحيوانات الدنيا زعمًا منهم ان الممتحنين يعذبون هذه الحيوانات و يؤلمونها وهو زعم فاسد لان الممتحنين من اشد الناس حنوًّا وقلما يمتحنون علاجًا في حيوان ما لم يتخذوا جميع الوسائط اللازمة لتخفيف الالم او لمنعهِ تمامًا ناهيك عن ان شعور الحيوان بالالم ليس شديدًا كشعور الانسان وقد لا يشعر بالم ابدًا كما ابنا في مقالة مسهبة في هذا الموضوع . وهب ان الحيوان يشعر بالالم كالانسان فالمخدرات التي تستعمل لهُ تضعف هذا الالم وقد تزيلهُ تمامًا اما الفوائد التي نجت لصناعة الطب من امتحان العقاقير وطرُق العلاج في الحيوانات فممَّا يفوق الوصف حتَّى ان المطَّلع على كتب الاقراباذين المؤلفة

سنة ١٨٦٧ والمؤلفة الآن يرى بينها فرقًا كبيرًا فقد وجدت ادوية كثير لتخفيف الحرارة كسليسلات الصودا والانتيبرين والانتيفبرين والفناستين وتوسّع في استعمال الكينا كثيرًا واستعملت هذه العقاقير ايضًا لتخفيف الآلام العصبيّة في النفرلجيا ونحوها حيث لا يفيد المورفين الاّ اذا أُعطي بكميّات كبيرة. وعندنا الآن ايضًا البروميدات والكورال والسلفونال والبارلدهيد والأرثين والكلورالامید وغير ذلك من العقاقير التي تسكّن الدماغ وحدها او مع الافيون. وقد تغيّر ظننا بالمقويات القلبية منذ خمس وعشرين سنة الى الآن فقد كان الاطباء يقولون ان الدجيتال يسكن القلب اما الآن فنعلم انهُ هو والسترفنثس والسبارتين ونحوهما تقوي القلب والدورة والافراز

ومن انفع مباحث الطب الحديثة معرفة العلاقة بين تركيب الدواء الكيماوي وفعلهِ النسبولوجي حتّى يمكن الانباء بفعل الدواء من معرفة تركيبهِ الكيماوي ويمكن اصطناع مركبات كيماويّة جديدة ليكون لها فعل علاجي معلوم ولم نبلغ ما نتمناهُ تمامًا من هذا القبيل ولكننا على الدرب المؤدي الى ذلك وكل من سار على الدرب وصل ولا تمضي خمس وعشرون سنة أُخرى حتّى يتّصل الاطباء الى ادوية وطرق جديدة للعلاج لا يعلمون منها شيئًا الآن

هذه خلاصة خطبة الدكتور برنتن والمطّلع عليها من الاطباء وغير الاطباء يرى ان لا بدّ للطبيب من ان يكون كثير المطالعة عالمًا بكل ما يجدّ في هذه الصناعة حذرًا في استعمال الادوية الجديدة والطرُق العلاجية الجديدة لا يخاطر في امتحانها بالانسان ما لم يتأكّد فعلها بالحيوان

اواسط اسيا

عاد المسيو غبريل بنفلت والبرنس هنري اورليَن من سياحتهما في قلب اسيا وقصّا على الجمعيّة الجغرافية ما شاهداهُ في سياحتهما من حدود روسيا في تركستان الى التنكوين وقالا انهما اكتشفا جبالاً وبحيرات وبراكين منطفئة وغياسر لم يصفها احد قبلهما وهي على ستة آلاف متر فوق سطح البحر. وسارا برجالهما من ثبت الى الصين في طريق لم يعبرهُ احد من الاوربيين قبلهما فرأيا فيهِ كثيرًا من الوحوش وصادفا في ثلاثة ايام واحدًا وعشرين دبًّا. ورأيا كثيرًا من الينابيع الكبريتية والغياسر المجلودة وقرودًا طويلة الشعر قصيرة الاذناب